مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

قراءات

ربيع الأول ١٤٤٢هـ / نوفمبر ٢٠٢٠م

دهليزُ المثقفين:
بيتُ نصيف .. نقطةُ التقاء الدوائر الإسلامية الإصلاحية (من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين)

أولريكه فرايتاغ

دهليزُ المثقفين:
بيتُ نصيف .. نقطةُ التقاء الدوائر الإسلامية الإصلاحية (من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين)

أولريكه فرايتاغ

ⓒ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فرايتاغ، أولريكه
دهليزُ المثقفين: بيتُ نصيف .. نقطةُ التقاء الدوائر الإسلامية الإصلاحية (من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين). / أولريكه فرايتاغ. - الرياض، ١٤٤٢هـ

٢٦ص؛ ١٦,٥x٢٣ سم.- (قراءات ١٢)

ردمك: ٠-٦٥-٨٢٦٨-٦٠٣-٩٧٨

١- نصيف، محمد بن حسين بن عمر، ت ١٣٩١هـ ٢- الضيافة
٣- جدة - تاريخ أ- العنوان ب – السلسلة
ديوي ٩٢٢,١ ١٤٤٢/١٦٧٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٦٧٤
ردمك: ٠-٦٥-٨٢٦٨-٦٠٣-٩٧٨

تصميم وإخراج
محمد يوسف شريف

إخلاء مسؤولية

أود أن أُعرب عن تقديري لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية لدعمه لهذا البحث في المملكة العربية السعودية، وللوزارة الاتحادية للتعليم والبحث (BMBF) لدعمها المالي للبرنامج البحثي المُموَّل بمركز الدراسات الشرقية الحديثة.

المحتويات

ملخص	٦
جدة: دهليزُ مكة	٧
الضيافةُ بوصفها واجباً رسميّاً: بيتُ نصيف نموذجاً	١١
الضيافةُ بوصفها مسعىً فكريّاً	١٣
الشبكات الفكرية وطباعة الكتب: نشر الرسالة السلفية	١٧
الضيافةُ بوصفها مسعىً أخلاقيّاً	١٩
فكرة الدهليز: العالمية والدَّنَس أو الطهارة	٢٠

ملخص

تبين هذه الدراسة كيف تحوّل التصور عن مدينة جدةَ من كونها مدخلًا أو بوابة إلى مكة، إلى ممارسة اجتماعية. يمكن استكشاف هذا من خلال التعرّف إلى مثالٍ من الأمثلة المختلفة حيث كان أفراد عائلة نصيف، ولا سيما محمد حسين نصيف، يستضيفون الناس في منزلهم الذي بُني لاستقبال الضيوف من علِية القوم. فكان كرم الضيافة واجبًا من الواجبات الشرعية تجاه الحجاج القاصدين بيت الله الحرام في مكة المكرمة، والتزام سياسي لجانب شريف مكة، والملك عبدالعزيز لاحقًا، ومن مهام الأنشطة الاقتصادية مثل تجارة الحبوب، وتعبيرًا عن جهود محمد نصيف الفكرية وعلاقاته الاجتماعية.

في سبتمبر من عام ١٩١٦م، ذهب المفكرُ والناشط المسلم الشهير محمد رشيد رضا ليؤديَ مناسكَ حجته الأولى، وما إن وصلت الباخرةُ التي كانت تُقلّه إلى جدة في ٢٧ سبتمبر، حتى تساءل كيف يمكنه وأمَّه وأختَه الوصولُ إلى الشاطئ بأمان؛ فقد كان على جميع السفن القادمة أن ترسوَ على «مسافة شاسعة» من الشاطئ، تبلغ حوالي كيلومتر؛ بسبب الشعاب المرجانية، والأمواج التي كانت مرعبة.[١] ومما هدَّأ روعَه أن «صديقنا الكريم الشيخ محمد نصيف وكيل سيدنا الشريف الأكبر» بادر بزيارته على متن السفينة. وصل نصيف على متن زورق بخاري للترحيب بضيوفه الذين أوصاهُ بهم الشريف، الذي أبلغه أيضاً بوقت وصول محمد رشيد رضا؛ وهكذا وصل رشيد رضا إلى الشاطئ مطمئناً، وأقام في منزل محمد نصيف. وقد كتب رضا: «لم نكد نستقر في الدار إلا وأقبل الزائرون والمهنئون يفدون علينا أفراداً وجماعات».[٢] ويُتابع بعد أن ذكر أسماءَ العديد من الزُّوّار:

> «أقمنا في جدّة من ضحوة يوم الخميس الى أصيل يوم السبت ولم أخرج من الدار في هذه المدة إلا الى صلاة الجمعة [...]، ولم أرد الزيارة لأحد لأن الزائرين كانوا لا يكادون يفارقوننا إلا وقت النوم».[٣]

جدة: دهليزُ مكة

يشير أهلُ جدة إلى مدينتهم بعدد من الأسماء الرقيقة، من بينها «بوّابة مكة»، و«دهليز مكة». ويُعرَّف الدهليز محليّاً على أنه «مدخل الدار **أو** بهوه»[٤] (التأكيد مني). ويصف المهندسون المعماريون والمؤرخون المحليون دهليزَ البيت التراثي الجدّاوي في المدينة القديمة على أنه مساحةٌ شبه عامة، وعادةً ما يتميز بوجود غرف جانبية بها مكاتب تجارية، وأحياناً مناطق استقبال تُطل على البهو والقاعة عبرَ الأبواب أو النوافذ المفتوحة. يستقبل الرجالُ زُوّارَهم وشركاءهم التجاريين ويعقدون الصفقات في المجالس في الدهليز أو المقاعد المجاورة.[٥] ومن هنا كان للدهليز وظيفة مزدوجة؛ فهو

---

(١) يوسف إيبش (محقق)، **رحلات الإمام محمد رشيد رضا**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧١م)، ٥٨.

(٢) إيبش، **رحلات الإمام محمد**، ٨٦.

(٣) إيبش، **رحلات الإمام محمد**، ٨٧.

(٤) محمد صادق دياب، **المفردات العامية في مدينة جدة**، (دون مكان نشر: مطبعة المحمودية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ٥١.

(٥) انظر أيضاً:
Abdulla Y. Bokhari, Jeddah: "A Study in Urban Formation," Doctoral dissertation, (Philadelphia: University of Pennsylvania, 1978); see also: Angelo Pesce, *Jiddah: Portrait of an Arabian City*,

فضاء البهو، ومكان الاعتناء بشؤون الحياة المهمة، فإذا كانت جدة تُعتبر دهليزَ مكة، فهي أيضاً تحمل هذا المعنى المزدوج.

ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن يكونَ هذا التناول لمفهوم الدهليز موضعَ خلاف بين عدد من الزملاء المحليين الذين استشرتُهم بشأن استخدام المصطلح وتطبيقه في حالة جدة؛ فقد أصرُّوا على أن جدة ما هي إلا مَمَرٌّ، وأكَّدوا إما على الطبيعة العابرة للدهليز على أنه «مجرد ممر يمر الناس من خلاله»، أو النظر إلى منطقة المدخل هذه بوصفها مكاناً مريباً إلى حدٍّ ما؛ إذ قد يتوارى فيه غرباء؛ مثل خَدَم الأُسَر الأخرى الذين يأتون في مهمات.[٦] وقد أدركْتُ أن العديد ممن طرحوا هذا الرأيَ كانوا من مدينتَيْ مكة والمدينة المُقدَّستَيْن، ومن منظورهم الديني اعتبروا جدة مجرد محطة طريق ضرورية لكثير من الحجاج والزوار. إضافةً إلى ذلك، فإن التصورَ المُظلِم المريب للدهليز بوصفه فضاءً يبقى فيه الأشخاصُ غير المسموح لهم بدخول الأقسام الأكثر خصوصية من المنزل يتناسب مع صورة مدينة جدة التي – بحكم كونها ميناء ـ استقبلت غير المسلمين (الممنوعين من زيارة مكة ومنطقة الحرم بالمدينة المنورة)، وتوفرت فيها ملذات المدينة الساحلية؛ مثل الخمر والدعارة. حتى إذا لم يفكر محاورِيَّ المعاصرون في وجود مثل هذه الرذائل في جدة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن المدينة تُشتهَر في المملكة العربية السعودية بأنها «مختلفة». واعتماداً على التوجُّهات الأخلاقية والدينية والاجتماعية والسياسية، يُعَدُّ هذا بالنسبة للبعض نقطةً إيجابية لمدينة منفتحة نسبياً

---

rev. ed, (London: Falcon Press, 1977), 118-119; Philippe Pétriat, *Le Négoce des Lieux Saints: Négociants Hadramis de Djedda*, 1850-1950, (Paris: Publications de la Sorbonne, 2016),163; Stefan Maneval, "The Architecture of Everyday Life in Twentieth Century Jiddah". Doctoral dissertation, (Fachbereich Geschichts- und Kulturwissenschaften, Freie Universität, 2015), 68; Nancy Um, "Reflections on the Red Sea Style: Beyond the Surface of Coastal Architecture," *Northeast African Studies* 12 (1), (2012);

عبد الله بن زاهر الثقفي، **العمارة بمدينة جدة في العصر العثماني ١٥١٧-١٩١٦م**، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ٢٠١٥م)، ١/٣٢٧.

وحول سياق البحر الأحمر انظر:

Um, "Reflections on the Red Sea Style,".

وحول سواكن انظر:

Muhammad Elfath Ahmed, "Suakin (Sudan) and the Architecture of the Ottoman Empire in the Red Sea," Doctoral dissertation, (Brandenburgische Technische Universität Cottbus-Senftenberg, 2015), 115-135; Paul Bonnenfant, and Jeanne-Marie Gentilleau, "Une Maison de Commerçant-armateur sur le Mer Rouge: bayt ʿAbd al-Udūd à al-Luḥayya (Yemen)," in *Les Villes dans l'Empire Ottoman: Activités et Sociétés* 2, ed. Daniel Panzac, Société Arabes et Musulmanes 9 (Paris: Ed. du Centre National de la Recherche Scientifique, 1994), 125–146.

(٦) محادثات في الرياض وجدة مع أكاديميين ومقيمين في جدة، ديسمبر، ٢٠١٧م.

وليبرالية ومحبّة للمرح، وبالنسبة للبعض الآخر، لا يعدو كونَه وصفاً لمكان يتسم بالإهمال والانحدار الاجتماعي والسياسي.

ورغمَ أن هذا قد يُنظر إليه على أنه نتيجة للتطورات السياسية في القرن العشرين، ولفرض معيارية معينة، كان هناك ــ على الأقل ــ تصوُّر محلي لكون جدة أقلَّ طهارةً من مكة. وقد أشار عددٌ من الأُسر التجارية إلى أن أسلافهم استقروا في مكة المكرمة في بداية الأمر، ولكن بمجرد أن وسَّعُوا أعمالهم انتقلوا إلى جدة لتجنب تدنيس مكة. لقد اختار بعضُ أصحاب النبي العيشَ خارج مكة خوفاً من كون الآثام التي يرتكبونها هناك أعظمَ إثماً من تلك التي تُرتكب في أماكن أخرى.[٧] ورغم أنه يبدو من المنطقي أن تكونَ التجارة في المدينة الساحلية، فإن الإصرار على التمييز الأخلاقي بين المدينتَيْن مثيرٌ للاهتمام في هذا السياق.

وبغض النظر عن كيفية فهم المرء لمصطلح «الدهليز»، فإن دور جدة في استقبال الحجاج في الماضي والحاضر لا جدالَ فيه؛ فقد استوعبت حوالي ٨٠ في المائة من الحجاج الوافدين منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، عندما أصبحَت السفنُ البخارية وسيلةَ النقل المُفضَّلة لديهم، لتحل محلَّها الطائراتُ في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. وحتى أوائل ثمانينيات القرن العشرين، كان على الحجاج المرور عبر جدة. أقام معظم الحجاج في البداية في غُرَف استأجروها من السكان المحليين. ومنذ عشرينيات القرن الماضي، افتُتح العديدُ من الفنادق، وفي الخمسينيات، افتُتحَت مدن خاصة للحجاج لاستيعاب أعدادهم المتزايدة. وعادة ما يُنظِّم مرشدو الحجاج، ووكالات السفر فيما بعد، أماكنَ إقامتهم، ومع ذلك كان هناك دائماً أولئك الذين سافروا بمفردهم، أو في إطار الشبكات غير المحلية للطرق الصوفية أو العلماء. كان يمكنهم كذلك العثور على مساكن في الأربطة والزوايا،[٨] إلّا أن ضيوف الشرف، كما هو الحال اليوم، يحصلون على إقامة خاصة.

كانت جدة أيضاً نقطةَ التقاء للتجارة في البحر الأحمر، وكان لها حتى خمسينيات القرن التاسع عشر دورٌ رئيس في نقل البضائع بين المحيط الهندي والبحر الأبيض

(٧) حولَ مثل هذه الأعراف انظر: عبد الرحمن بن علي بن رجب الحنبلي، **جامع العلوم والحكم**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م)، ٢/٣١٨. وأشكر سعود السرحان الذي دلني على هذا التاريخ وعلى هذا المصدر.

(٨) حول التنظيم المحلي للحج من خلال مؤسسة الطوافة، انظر:
Michael B Miller, "Pilgrims' Progress: The Business of the Hajj," *Past and Present* 191, no. 1 (2006): 189–228.

المتوسط، ورغمَ أنها فقدت الكثيرَ من أعمالها خلالَ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسبب تطور السفن البخارية، وافتتاح قناة السويس، فقد ظلت ميناء إقليميّاً رئيساً.[٩] وعادةً ما يقيم التجار الذين يأتون إلى جدة مع شركائهم التجاريين، أو يُرتب شركاؤُهم لهم الإقامةَ في العديد من الوكالات، وهي مبانٍ كبيرة تُستخدم للتخزين، وسكن التجار، وأحياناً أيضاً في مساكن مُستأجرة طويلة الأجل، تُعرف في أماكن أخرى في الشرق الأوسط بالخان أو الكاروانسراي. وإذا لم يكن للتاجر صلاتٌ محلية يمكنه استئجارُ غرفة من تلك التي يستخدمها الحجاج خلالَ موسم الحج.

كانت مجالات الحج والتجارة متشابكةً إلى حد كبير في نواحٍ كثيرة. ورغمَ أن العديد من الأُسَر التجارية لديها أقارب وفروع عمل في مكة في كثير من الأحيان، أو أصولها من تلك المدينة، كان مقرها التجاري في الغالب في جدة. وبالنسبة للبعض، وليس للجميع بحالٍ من الأحوال، فإن التجارة إما تأتي مع الحجاج أو تساعد على وجودهم.

كلُّ هذا يعني أن جدة كانت من بعض النواحي أهمَّ نقطة التقاء في الحجاز؛ بسبب هذا التقاطع بين التُجّار والحُجّاج، ومن بينهم العديد من الشخصيات السياسية والدينية والفكرية البارزة. بالإضافة إلى ذلك، سمحت جدة بالتفاعل السهل نسبيّاً بين العدد الآخذ في التزايد شيئاً فشيئاً من التجار والوُكَلاء الأجانب (ومن بينهم القناصل)، وبين الوُجَهاء من التجار والمفكرين المحليين. وبينما كانت مكة ملجأً للمسلمين من مختلف الإمبراطوريات، الذين لم يرغبوا في أن يلاحقَهم الممثلون الدبلوماسيون لهذه الإمبراطوريات في جدة، فقد سهّلت جدة الوصول إلى هذا الملجأ، وكانت المدخلَ للتواصل والتفاوض مع التجار والعلماء غير المسلمين. حتى المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام؛ مثل كريستيان سنوك هرخرونيه، أو الذين تظاهروا بأنهم مسلمون؛ مثل ريتشارد فرانسيس برتون، اضطروا إلى المرور عبرَ المدينة لزيارة مكة، وكما فعل سنوك هرخرونيه، غالباً ما استخدموا إقامتَهم هناك لتكوين علاقات محلية.[١٠] ويتناول الاستكشافُ الآتي للجوانب المختلفة للضيافة بيتَ محمد نصيف (المعروف باسم بيت

(٩) التأريخ الاقتصادي الأكثر دقةً لمدينة جدة هو:
Pétriat, *Le Négoce des Lieux Saints*.

(١٠) كتب سنوك هرخرونيه مذكرات شيقة عن إقامته في جدة في ١٨٨٤-١٨٨٥م، وهي محفوظة في مكتبة جامعة ليدن، برقم: Cod. Or. 7112.

نصيف) ونُزَلاءَه، بوصفه تجسيداً جوهريّاً للضيافة في الغالب. وهو بمنزلة نقطة انطلاق يمكن من خلالها استكشافُ بعض العوامل المرتبطة بالضيافة في جدة؛ وهي الالتزاماتُ الرسمية، والمساعي الفكرية والسلوكية والأخلاقية. وسيُسلط هذا الضوءَ على المعنى الملموس لمفهوم جدة باعتبارها دهليزَ مكة.

الضيافةُ بوصفها واجباً رسميّاً: بيتُ نصيف نموذجاً

امتلك العديدُ من تجار جدة منازل كانوا يستقبلون فيها معارفهم وضيوفهم، وغالباً ما كانوا يُسكنونهم فيها. وفيما يتعلق بالمعارف الرسمية والعلمية، تبرز عائلةُ نصيف وبيتهم في مدينة جدة القديمة. تدَّعي الأسرة أنها تنتسب إلى قبيلة حرب التي أقامت بين جدة والمدينة، رغم وجود رواية أخرى تُرجع أصولهم إلى مصر.[١١] وأيّاً كان الأمر، يبدو أن أفراد الأسرة المُوثَّقين الأوائل في جدة كانوا يتاجرون في الحبوب، وربما سهَّلوا ذلك عبر اتصالاتهم بجنوب مصر. ونظراً لأهمية المواد الغذائية ـ ولا سيما الحبوب ـ بالنسبة للحج، فقد كان هذا على الأرجح أساسَ ثروتهم الهائلة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.[١٢]

في منتصف القرن التاسع عشر، صُنِّفت عائلة نصيف من بين العائلات الأولى في جدة، والدليل على ذلك أنّه في عام ١٨٤٧م أوقف أبي بكر نصيف أراضٍ شاسعة كوقف أهلي.[١٣] وإلى جانب التجارة، عملوا وكلاء لأشراف مكة منذ زمن عبد الله نصيف بن أبي بكر (ت. ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١- ١٨٧٢م). وقد سار على خطاه ابنُه عمر (١٨٢٢-١٩٠٨م)، وحفيده حسين ، ثم محمد بن حسين (١٨٨٥-١٩٧١م)، مع انقطاعات عارِضة في فترة توليهم المنصب عندما ساءت العلاقات مع الأشراف. خلالَ القرن التاسع عشر، توسعت العائلة لتدخُل مجال الشحن ونقل الحجاج، واشترت مساحات كبيرة من

(١١) مقابلات مع محمد طرابلسي، جدة، ١٣ مارس ٢٠١٠م، وعبد الرحمن نصيف، جدة، ٢١ مارس ٢٠١١م، وانظر أيضاً:
J. R. L Carter, *Leading Merchant Families of Saudi Arabia*, (London: Scorpion Publications, 1979), 34; David George Hogarth, *Hejaz before World War I*, 2nd ed. (Cambridge: Oleander Press, 1978), 66;
خيرالدين الزركلي، الأعلام: **قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، الطبعة الخامسة عشر، المجلد السادس، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ١٠٧ وما بعد الذي يذكر قول نصيف بأنَّ جدته لم تؤمن بانتساب العائلة لقبيلة حرب.

(12) Carter, *Leading Merchant Families of Saudi Arabia,* 34.

(١٣) وثيقة الوقف مؤرخة بتاريخ ١٣٩٥/١١/٧هـ/ ١٠ نوفمبر ١٩٧٥م، وتشير إلى وقف بتاريخ ١٢٦٣/١١/١٤هـ. ونُصَّ فيها على أنَّ صهاريج شمال جدة ذات ملكية خاصة. رُوجعت في جدة، ٢، مارس، ٢٠١٥م.

الأراضي داخل وخارج مدينة جدة القديمة. على وجه الخصوص، كانت الأراضي البعيدة تُستخدم في كثير من الأحيان لتجميع المياه من خلال أنظمة واسعة من السدود التي تقود مياه الأمطار النادرة إلى صهاريج، لتُباع مياهها في المدينة.[١٤] في عام ١٩٠١م، وربما قبلَ ذلك وبعده، كان عمر نصيف شيخ تجار جدة، بينما في عام ١٩٢٤م، وُصف حفيده بأنه «أحد أثرياء جدة»؛ وربما يشير هذا الوصف إلى قلّة نشاطه التجاري.[١٥]

ولكونهم وكلاءَ تجاريين لشريف مكة، كان على آل نصيف أن يستضيفوا شُرَفاء مكة في أثناء زياراتهم إلى جدة، بالإضافة إلى شركاء الشرفاء التجاريين، وكان ذلك يتطلب منزلاً كبيراً جيدَ التأثيث، ولذلك بنى الشيخ عمر بيت نصيف الكبير، بين عامَي ١٨٧٢م و١٨٨١م الذي لا يزال يُزار في مدينة جدة القديمة.[١٦] يتميز البيت بغُرَف استقبال كبيرة، بالإضافة إلى العديد من الغُرَف المستخدمة لسكن العائلة وضيوفهم. وتضم بقية الغرف غرفَ الخدم والعبيد والمطابخ والحمامات. وبالبيت صهاريج خاصة تعمل على تبريده في الصيف، وتجعله مستغنياً عن مصدر المياه الخارجي.[١٧]

في هذا المكان، استضاف آلُ نصيف الواليَ العثماني، الذي عاش في مكة منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، لكنه زار جدةَ على فترات لتسوية الخلافات في المدينة الساحلية الرئيسة، أو مناقشة الأمور مع القناصل الأجانب الممنوعين من زيارة مكة. ويُقال إن السلالم المسطحة، التي يُفترض أنها تسمح بالصعود إلى أعلى الطوابق على ظهور الخيل، قد استخدمها أحمد راتب باشا، حاكم الحجاز العثماني بين عامَيْ ١٨٩٣م و١٩٠٨م، عندما أراد الوصولَ إلى الكشك الخشبي المتجدد الهواء في الجزء العلوي من البيت (الطيرمة) لينعمَ بنسيم المساء.[١٨] ومن بين المثقفين الكثيرين وغيرهم من زُوّار المنزل العالم والمسؤول الإيراني مهدي قلي خان هدايت، الذي استضافه نصيف في

---

(١٤) محمد يوسف محمد حسن طرابلسي، **جدة: حكاية مدينة**، الطبعة الثانية المنقحة، (الرياض: دون ناشر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ١٤٢؛ محمد بن أحمد سيد أحمد، وعبده بن أحمد العلوي، **محمد نصيف: حياته وآثاره**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٤م)، ١١٩.

(١٥) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين: الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاةً بمئات الصور الشمسية**، (القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م)، ١/ ٢٠؛ حسين محمد نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، (دون مكان نشر، دون ناشر، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، ١٣٣.

(١٦) أحمد والعلوي، **محمد نصيف**، ١١٩.

(١٧) انظر أيضاً: https://archnet.org/sites/3794

(١٨) محمد علي المغربي، **أعلام الحجاز**، الطبعة الثانية، ٤ مجلدات، (جدة: مطابع دار البلاد، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ١/ ٢٣٤.

أثناء حج عام ١٩٠٤م، وفي أثناء وجوده في جدة. وخلالَ هذه الإقامات، تلقى ضيوفُ نصيف بدورهم زيارات من علماء ووُجهاء محليين بطريقة مشابهة لتلك التي وصفها رشيد رضا في الاقتباس الافتتاحي. كان من بين الزوار أعضاء من النُّخَب السياسية والاقتصادية والعلمية المحلية، وعلى سبيل المثال زار هدايت القائمقامُ (حاكم المنطقة)، وربما تاجرٌ إيراني بارز. وكان تقديم الضيافة لهؤلاء الزوار واجباً؛ مما كلف الأسرة نفقات كبيرة.[١٩]

في ديسمبر ١٩٢٥م، عندما استسلمت جدةُ بعد حصار دام عاماً، التقى القائمقامُ السلطان عبد العزيز آل سعود في منزله بالكندرة إحدى ضواحي جدة.[٢٠] ومع ذلك، عندما دخل ابن سعود جدة استُضيف في بيت نصيف، حيث استَقبل أيضاً وفوداً من قطاعات مختلفة من السكان أعربوا عن ولائهم له.[٢١] وقد استخدم ابن سعود البيتَ في زيارات لاحقة أيضاً، حتى بُني منزلُه.[٢٢] وكان لكلٍّ من الشَّرُّفاء وابن سعود ضيوف يصلون إلى جدة في أثناء غيابهم. وفي كثير من الأحيان، طُلب من عمر نصيف، وبعده من محمد نصيف، استضافة هؤلاء نيابةً عن الحُكّام. وهكذا أداروا ما يُعَدُّ دارَ ضيافة حكومية في جدة.

الضيافةُ بوصفها مسعىً فكريّاً

بعيداً عن تسكين الزوار المرتبطين بأعماله الخاصة، وبعيداً عن ضيوفه من السياسيين، أصبح محمد نصيف، على مستوىً دولي، مضيفاً معروفاً للضيوف الدوليين. وعلى وجه الخصوص، سعى الإصلاحيون المسلمون والدبلوماسيون الأجانب إلى صحبته. ومع مرور الوقت، طوَّر شبكةً كبيرة من العلاقات مع المثقفين العرب والدوليين.[٢٣]

ومع أن محمد نصيف كان بالتأكيد أبرزَ مضيف لمثل هؤلاء الزُّوّار إلى جدة، وكان دوره موثقاً توثيقاً جيداً، يجب أن نضع في اعتبارنا أنه أيضاً لم يكن الوحيدَ بأي حال

(١٩) أحمد محمد محمود، **جمهرة الرحلات: رحلات الحج**، (جدة: مطبعة المحمودية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ١/ ٣٦٤.

(٢٠) **معلومة شفهية**، نقلًا عن الدكتور عبد الله مناع، جدة، ٢٠، مارس، ٢٠١١م.

(٢١) «استيلاء ابن سعود على جميع الحجاز: وثائق تاريخية»، المنار ٢٦، ٩ فبراير، ١٩٢٦م، ٦٧٣-٦٧٤.

(٢٢) المغربي، **أعلام الحجاز**، ١/ ٢٣٤ وما بعدها.

(٢٣) يعطي كتاب «**محمد نصيف**»، لأحمد والعلوي (١٩٩٤م)، انطباعاً جيداً عن هذه الشبكة، وينطبق الأمر ذاتُه على العديد مما كُتب في أدب الرحلات حولَ الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى وعام ١٩٧١م.

من الأحوال، وأن التجارَ الآخرين، وكذلك العلماء والمتصوفة، قدموا ضيافةً مماثلة. وأرى أن الاختلافَ الرئيس ربما كان في نطاق شبكات علاقاتهم. على سبيل المثال، كانت الزاوية السنوسية تأوي أعضاء من شمال إفريقيا والسودان وشبه الجزيرة العربية الذين مروا بجدة؛ وكان إطار هذه الشبكة هو عضوية في الطريقة السنوسية، وكان نطاقها الجغرافي محدوداً. وبالمثل، فإن معظمَ الوُكَلاء الذين يُشرفون على تسكين الحجاج مباشرةً أو يُنظمون إقامتهم، لديهم أيضاً نطاقات جغرافية مماثلة، ويتعاملون مع الحجاج القادمين من جهات معينة، وفي حين أن أعداداً أكبر قد تكون قد نزلت في منازل آل نصيف وفي بعض الأربطة (نُزُلٌ للحجاج، وللفقراء كذلك)، فإن ما يميز شبكة محمد نصيف هو المزيج الفريد من الشبكات السياسية من خلال الشُّرَفاء، وفيما بعدُ الارتباط السعودي بشبكة علاقات محمد نصيف من أهل الفكر.

كانت زيارة رشيد رضا، المذكورة آنفاً، وفقاً لرضا، إحدى المناسبات التي تصرف فيها محمد نصيف بناءً على طلب الشريف. هذا مثير للاهتمام، بقدر ما يشهد على دعم رضا المبكر لمشروع الوحدة العربية الذي تبناه الشريف حسين بن علي. في ذلك الوقت كان يأمل في عقد مصالحة بين الشريف ـ حاكم الحجاز فيما بعدُ ـ وخصمه أمير نجد عبد العزيز بن سعود. وقد برَّر رشيد رضا في وقت لاحق استيلاء ابن سعود على الحجاز في ١٩٢٤-١٩٢٥م بتحقيق الأخير لوحدة شبه الجزيرة العربية.[٢٤] ورغم اختلافها عن المشروع الديني للعلماء السعوديين، فإن أفكارَ رشيد رضا الإصلاحية كانت أقربَ إليهم من مواقف الشريف حسين وسياساته. ربما كان السياقُ الرسمي هو الذي مكَّن محمد نصيف، الذي كان لا يزال شابّاً إلى حدٍّ ما في ذلك الوقت، من إقامة اتصال وثيق مع مفكرٍ مصري معروف كان على دراية بأفكاره. كان محمد نصيف قد تراسل مع مجلة «المنار» التي يحررها رشيد رضا، وربما مع رشيد رضا نفسه، في مسائل متعلقة بالعقيدة والحديث منذ عام ١٩٠٧م.[٢٥] والمناقشةُ الآتية مثال على دَور جدة باعتبارها دهليزاً، لكنها أيضاً ذاتُ خصوصية من جهة نطاق الشبكة التي بناها محمد نصيف، من الناحية الجغرافية، وكذلك من ناحية مزجها بين القادة السياسيين ورجال العلم.

(24) Werner Ende, "Rashīd Riḍā." In *Encyclopedia of Islam, Second Edition*, Edited by P. Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs, (2012). Accessed August 19, 2020. http://dx.doi.org/10.1163/1573-3912_islam_SIM_6240.

(٢٥) أحمد والعلوي، **محمد نصيف**، ٢٠-٢٢.

يبدو أن الطريقةَ التي استقبل بها نصيف رشيد رضا كانت جزءاً من مراسم أكثرَ عمومية لاستقبال الضيوف المرموقين، يَذكر أيضاً الناشط الإسلامي شكيب أرسلان، الذي كتب عن حجته عام ١٩٢٩م، أن القائمقام استقبله على متن القارب، وكذلك المسؤولون والوُجهاء «وعلى رأسهم عين أعيان الحجاز الشيخ محمد نصيف»، وذلك قبلَ أن يلتقيَ به أيضاً الملكُ عبد العزيز في جدة، ويُقلَّه في سيارته إلى مكة.[٢٦]

وقد روى الشاعرُ المصري محمد كامل حتة على لسان مواطن مصري أن «مناسك الحج بمعناها الأشمل... لا تتم إلا بزيارة الشيخ محمد نصيف».[٢٧] وبالنظر إلى هذا الثناء غير العادي إلى حدٍّ ما، والذي يرفع من مكانة محمد نصيف إلى ما هو أبعدُ من المعتاد، يجدُر إلقاء نظرة سريعة على حياة هذا المُثقَّف المتميز.

وُلد محمد نصيف عامَ ١٨٨٥م، وهو الابن الوحيد لحسين، الذي كان بدوره الابن الوحيد لعمر نصيف. في البداية، شأنه شأن معظم أطفال جدة، كان يتعلم القرآن فحسب، ربما في المنزل وليس في إحدى المدارس القرآنية المحلية؛ إذ لم يَرِد ذكرٌ لأيٍّ منها عند كُتّاب سيرته. وربما كان هناك افتراضٌ بأنه مثل العديد من الأطفال المحليين الآخرين، سيتدرب في النهاية على إدارة أعمال العائلة على يد جده. وتروي قصة منتشرة على نطاق واسع أن هذا المسار تغير عندما بلغ سن الخامسةَ عشرة تقريباً. في ذلك الوقت، كان جدُّه يعتقد أنه يجب أن يكون له رفيقة، فأرسله إلى السوق لشراء جارية. انزعج محمد مما رآه في سوق العبيد، وفي طريق عودته إلى المنزل، مر على عالِم كان يبيع مكتبتَه؛ وبدلاً من شراء الجارية اشترى كميةً كبيرة من الكُتُب. عرف الجد شغفَ محمد الحقيقي، وقدمه إلى عدد من المشايخ في جدة ومكة، ومن بينهم العديد ممن تأثروا بأفكار محمد بن عبد الوهاب.[٢٨] ويبدو أن هناك صلات أخرى أيضاً: فقد كان التاجر عبد القادر التلمساني على اتصال بالعالِم النجدي وتاجر الملابس أحمد بن إبراهيم العيسى، وأوصله بمحمد نصيف.[٢٩]

---

(٢٦) «أداء الأمير شكيب لفريضة الحج»، **المنار** ٣٠، ١٩٢٦م، ١٥٧-١٦٠.

(٢٧) محمود، **رحلات الحج**، ٢/٩٣، نقلًا عن حتة، **صور من الحجاز**.

(٢٨) أحمد والعلوي، **محمد نصيف**، ١٤٠.

(٢٩) عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، **علماء نجد خلال ثمانية قرون**. الطبعة الثانية، المجلد الأول، (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨-١٩٩٩م)، ١/٤٣٧.

ولكونه الابن الوحيد لوالده، ورث محمد ثروةَ الأسرة ومكانتها الاجتماعية وبعض مناصب جده، وأصبح أحدَ أعيان جدة في سن مبكرة.[٣٠] وكان منخرطاً، على سبيل المثال، مع الحزب الوطني الذي أزاح الملك حسين بن علي عن السلطة عام ١٩٢٤م، وأعد أسباب إزاحة حسين بن علي عن العرش لصالح السلطان عبد العزيز (لاحقاً الملك عبد العزيز آل سعود) في ديسمبر ١٩٢٥م.[٣١]

ولم يكن رشيد رضا إلّا واحداً من ضيوف محمد نصيف من العلماء البارزين؛ فالعالم والفقيه السوري علي الطنطاوي، الذي تعرف على نصيف عام ١٩٣٤م في أثناء حجه، والذي أصبح فيما بعدُ ــ ربما بعد انتقاله إلى المملكة العربية السعودية ــ صديقاً له، يصف بيت نصيف قائلاً:

> ما كنت أزوره مرة إلا وجدت عنده بعض أهل الفضل من المملكة أو من مصر ومن الشام ومن العراق ومن المغرب أدناه وأقصاه، كان له في كل بلد إخوان وأصدقاء، كان داره فندقا، لكنه أرخص الفنادق، لأن الأكل فيه والنوم بلا شيء [...].[٣٢]

ويبدو أن أخبار هذه الضيافة الكريمة والبيئة الفكرية المفعمة بالحيوية قد انتشرت بسرعة وتجاوزت العالمَ العربي. وقد ورد شاهد على ذلك في رواية يُوردها الباحث والصحفي الهندي عبد المجيد الدريابادي، الذي حجَّ عام ١٩٢٩م. وقد وفَّر له وكيل الحج صالح بسيوني مكاناً للإقامة، وقد كتب الدريابادي:

> وكنا نشعر بالتعب في قضاء الليل في منزله لافتقاره للتهوية، فطلبنا من الشيخ محمد نصيف أن يسمح لنا بقضاء الليل عنده في الهواء الطلق، حيث الأرائك المريحة، فسمح لنا الشيخ بكل سرور، متلطفا علينا بكرمه[٣٣]

ربما كان شغفُ نصيف بالكتب والتبادل العلمي هو ما دفعه إلى توسيع شبكته خارج

---

(٣٠) أحمد والعلوي، **محمد نصيف**، ٢٠٦-٢٠٩.

(٣١) نصيف، **ماضي الحجاز وحاضره**، ١٣٣.

(٣٢) محمود، **رحلات الحج**، ٢/١٧٦. وحول الطنطاوي انظر: http://kingfaisalprize.org/sheikh-ali-at-tantawi/

(٣٣) محمود، **رحلات الحج**، ٢/٥٨.

نطاق مثقفي المسلمين. وقد كان والده وجده على اتصال بالفعل بالقنصلية الهولندية والمستشرق الشهير كريستيان سنوك هرخرونيه، الذي أقام في جدة في ١٨٨٤-١٨٨٥م. وتُظهر رسالة مؤثرة محفوظة في أرشيف سنوك هرخرونيه في ليدن أن هرخرونيه قد التقط صورةً لوالد نصيف، وبوساطة من القنصلية الهولندية، أَرسل لاحقاً إلى نصيف نسخةً منها. وكان نصيف في شبابه أكثرَ تشدداً في الدين، فمزّق نسخته من الصورة؛ لأنه كان يعتقد أن التصويرَ محرم، لكنه ندم فيما بعد على ذلك.[٣٤]

وكان القنصل الهولندي دانيال فان دير ميولن أحدَ معارف محمد نصيف وزائريه الدائمين. يصف فان در ميولن بالتفصيل كيف التقى في منزل نصيف بالملك عبد العزيز، والرحّالة والكاتب الأمريكي اللبناني أمين الريحاني، ورجل الأعمال الأمريكي تشارلز كرين، والمستشرقين لويس ماسينيون (فرنسا)، ورودولف ستروتمان (ألمانيا)، وغيوم إف. بيبر (هولندا). ويُمكننا أن نضيف آخرين إلى القائمة، مثل المستشرق الإيطالي الشهير كارلو نلينو. يُعلق فان دير ميولن أيضاً على وجود «ممثلين عن الحركات القومية الإسلامية».[٣٥] وهكذا اجتمع في بيت نصيف مجموعةٌ مختلطة وعالمية، في أشكال مختلفة، سواءٌ خلال موسم الحج أو في أوقات أخرى.

الشبكات الفكرية وطباعة الكتب: نشر الرسالة السلفية

كان شغف محمد نصيف الحقيقي هو الكتب، وخلال حياته وسع مكتبته بشكل كبير، حتى احتوت على حوالي ٦٠٠٠ مجلد مطبوع، و٤٠٠ مخطوطة، في مختلف فروع العلوم الدينية، ومجموعة متنوعة من المجالات الأخرى من بينها الأدب. وقد ذهب نصيف إلى ما هو أبعدُ من القراءة؛ فقد ساعد في الترتيب لنشر عشرات المخطوطات، جزئيّاً بمساعدة مالية، ولكن أيضاً من خلال لفت انتباه الناشرين والجهات الراعية المُحتمَلة للمخطوطات.[٣٦] وغالباً ما تضمنت عملية طباعة المخطوطات شبكةً من الأشخاص

(٣٤) مكتبة جامعة ليدن، (OR 8952 A:743, Naṣīf, M)، ٨ أبريل، ١٩٢٠م. ولمزيد من المعلومات حول المراسلات بين العالِمَيْن، انظر:
Ulrike Freitag, "Scholarly Exchange and Trade: Muḥammad Ḥusayn Naṣīf and his Letters to Christiaan Snouck Hurgronje," in *The Piety of Learning: Islamic Studies in Honor of Stefan Reichmuth*, edited by M. Kemper and R. Elger, (Leiden, Boston: Brill, 2017), 292-308.

(35) D. van der Meulen, *The Wells of Ibn Sa'ud,* (London: Murray, 1957), 20.

(٣٦) للاطلاع على قوائم الكتب التي دعم نصيف طباعتها، انظر: أحمد والعلوي، **محمود نصيف**، ٢٠٤ وما بعدها، ٢١٦ وما بعدها.

الذين يتعاونون فيما بينهم، في كثير من الأحيان على أساس العلاقات الشخصية والثقة. يصف عمر رياض تلك العمليةَ في إحدى الحالات التي حظِيَت بتمويل مشترك من نصيف: كَتَب العالم السلفي المغربي تقي الدين الهلالي (١٨٩٣-١٩٨٧هـ) تعليقات على العهد الجديد في نسخة من الكتاب المقدس أعطاه إياها مبشرٌ أمريكي. وقد جذب هذا اهتمامَ رشيد رضا وشكيب أرسلان. اقترح رشيد رضا نشرَ الرسالة بمساعدة محمد نصيف.[٣٧] ورغم أن دور نصيف لم يُدرَس دراسةً نقدية وشاملة حتى الآن، وهو أمر يجب تناوله بالبحث في الدراسات المستقبلية، يمكن اعتباره جزءاً أساسيّاً من السعي لنشر نصوص سلفية، أبرزها تلك التي كتبها ابن تيمية وابن قيم الجوزية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. وكما هو الحال مع شرح الهلالي، لم يكن نصيف يعارض دعمَ معاصريه، ومن بينهم محب الدين الخطيب، والشيخ محمد بن صالح العثيمين. وكما هو الحال مع الهلالي، قد يكون هذا قد اقترحه عليه بعضُ معارفه. ويبدو أنه كان على اتصال متكرر، إلى حدٍّ ما، مع العالم الدمشقي جمال الدين القاسمي، ومحمود شكري الآلوسي في بغداد، وقد نصح الآلوسي القاسمي بالاتصال بنصيف تحديداً فيما يتعلق بنشر نصوص ابن تيمية.[٣٨] وقد أسهم نصيف في نشر تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، على سبيل المثال من خلال نشر إحدى فتاواه بشأن إبطال الأوقاف الأهلية في المنار.[٣٩]

لم تكن هذه الأنشطةُ لِتَحدُثَ لولا علاقات نصيف الواسعة، التي نشأت من خلال لقاءات شخصية، ثم استمرت وتوسعت عبرَ مراسلاته الواسعة النطاق. طبع نصيف كُتُباً في مصر وبومباي وبيروت وربما في أماكن أخرى. وتشهد رسالةٌ من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية عام ١٩٦٥م، تطلب فيها دعمه باختيار وتحقيق أهم الأعمال في التراث الإسلامي، على الاعتراف الواسع بخبرته.[٤٠] وتُسلِّط الرسالةُ كذلك الضوءَ على الطريقة التي يجب أن ننظر بها إلى ما هو أبعدُ من الشخصيات العلمية

(37) Umar Ryad, *Islamic Reformism and Christianity: A Critical Reading of the Works of Muhammad Rashad Ridah and His Associates* (1898-1935), History of Christian-Muslim Relations v. 12, (Leiden: Brill, 2009), 62f.

(٣٨) أسامة شحادة، «علّامة الشام جمال الدين القاسمي»، مجلة البيان، ١، مارس، ٢٠١٣م، رُجع إليه في: ١٩، مارس، 2014م، http://albayan.co.uk/article2.aspx?ID=2479 .

(٣٩) «إبطال الوقف الأهلي»، **المنار**، ١٩٢٨م، ٢٩/١٣٦-١٤٢.

(٤٠) أحمد والعلوي، **محمود نصيف**، ١٥٣.

والصحفية المعروفة مثل القاسمي والآلوسي والخطيب، لفهم الأعمال المُعقَّدة التي يتضمنها نشرُ قسم معين من التراث الإسلامي.

إن إجراء دراسة تحليلية عن كَتَب لإرث نصيف يُمكن أن يقدم إسهاماً مهمّاً في تاريخ إنتاج الكتاب المبكر المرتبط بشبه الجزيرة العربية. وقد كان لبومباي، وربما كلكتا وأماكن أخرى في الهند، دورٌ حاسمٌ في الطباعة المبكرة للأعمال السلفية، إضافةً إلى إنتاج الكتابات السلفية، وبشكل أكثر تحديداً، الكتابات الوهابية.[٤١] وقد أقام نصيف علاقات عمل وثيقة مع صاحب مطبعة هندية، تزوجَ ابنُ نصيف حسينٌ ابنتَه لاحقاً، وهي من أسَّسَت المدرسة النصيفية، وهي إحدى مدارس البنات الأولى في جدة.[٤٢] ومن الجدير بالذكر في هذا السياق الأوسع أن نصيفاً لم يجمع الكتبَ فحسب، بل اتَّجَر فيها أيضاً.

يُهيمن الاهتمام المشترك بالكتب والمخطوطات على الرسائل المحفوظة المتوفرة من نصيف إلى سنوك هرخرونيه وعدد قليل من الغربيين الآخرين. كانت هذه أيضاً قضيةً مركزية في مراسلاته مع المثقفين والمؤسسات الأخرى، كما يتضح من السيرة التي كتبها أحمد والعلوي (١٩٩٤م)، والتي تضم مجموعة رائعة من الرسائل من مختلف المؤسسات والمسؤولين والعلماء. وليس بين أيدينا حتى الآن رسائلُ نصيف للكثير من الأشخاص والمؤسسات الذين كتبوا إليه، باستثناء بعض الرسائل المنشورة، في **المنار** على سبيل المثال، أو التي ظهرت في مجموعات المكتبات؛ مثل تلك الموجودة في مكتبة جامعة ليدن في هولندا. ويبدو مما رأيتُه حتى الآن أن هذه الرسائل يُكَمِّل بعضُها بعضاً، ويعتمد بعضُها على بعض اعتماداً وثيقاً. وسيكون لزاماً على أي دراسة لشبكة علاقات محمد نصيف أن تبذُل جهداً كبيراً للبحث عن مثل هذه الرسائل.

الضيافةُ بوصفها مسعىً أخلاقيّاً

من الجدير بالذكر أن دورَ نصيف في الضيافة لا يمكن اختزالُه في السياسة، والأعمال، والأهم من ذلك التعلم. وتوضحُ الحكايةُ الآتية، التي رواها الطنطاوي، الزخمَ الأخلاقي العميق الذي يُنبئ عن دوره مُضيفاً:

(41) Reinhard Schulze, *Islamischer Internationalismus im 20. Jahrhundert: Untersuchungen zur Geschichte der Islamischen Weltliga,* (Leiden: Brill, 1990), 135-137; Seema Alavi, *Muslim Cosmopolitanism in the Age of Empire,* (Cambridge, Harvard University Press, 2015), Chapter 5.

(٤٢) طرابلسي، **جدة**، ٤٤١؛ مقابلة مع د. فاطمة نصيف، جدة، ١٦، فبراير، ٢٠١٥م.

وجدت عنده مرة رجلا على الغذاء، فلما عدت بعد أسبوعين وجدته بعد شهر، فقلت له: من هذا الرجل الذى أراه نازلا عندك؟ فقال: رجل طيب عرفته في بعض أسفاري إلى لبنان، يبدو أن له أعمالا هنا، لا أعرف اسمه(٤٣)

يتوافق هذا مع عدد لا يُحصى من الروايات عن الضيافة المقدمة في جدة. ففي مجتمع يُمارس الفصلَ بين الجنسين بشكل صارم، لم يكن من المُستغرب أن تدعوَ سيدةُ البيت الرجالَ الغرباء الذين ينامون في العراء في أثناء موسم الحج إلى البيت للنوم وتناول الطعام، رغم أنهم لا يقابلونها بالطبع.(٤٤)

أما أولئك الذين كانوا أفضلَ حالاً فإن ضيافتهم تميل إلى أن تكون باهظةَ التكلفة؛ فقد وثَّق رشيد رضا أسماءَ العديد من المسؤولين والوُجَهاء والعلماء الذين جاؤوا لزيارته عندما أقام مع نصيف خلالَ رحلاته المختلفة إلى الحجاز. في كل مرة، وصل عدد هؤلاء إلى حوالي عشرين شخصاً، من بينهم السياسيون وأعيانُ التجار. وكان على محمد نصيف أن يتأكد من أنه قدَّم لهم الضيافةَ المناسبة. ويبدو أن هذا كلفه الكثير، فقد اضْطُرَّ إلى بيع الكثير من عقاراته الكبيرة لتمويل واجبات ضيافته. في ثلاثينيات القرن الماضي، أصبح واضحاً أن هذا كان مكلفاً للغاية، لذلك طلب قائمقام جدة من الملك عبد العزيز أن يقدم لنصيف راتباً منتظماً مقابلَ بعض ما يتحمله من تكاليف.(٤٥) وقد وُوفق على هذا الطلب نظراً للدور الذي اضطلع به نصيف في ضيافة العديد من الضيوف الحكوميين.

فكرة الدهليز: العالمية والدَّنَس أو الطهارة

يوفر تجارُ جدة، ووجهاؤها ومؤسسات الحج بها؛ مثلُ الأربطة والزوايا، مساحةً فريدة للتواصل الإسلامي الدولي، شأنُها شأنُ مكة. وعلى عكس مكة، كانت جدة لمعظم الزوّار مجردَ محطة مرور في طريقهم إلى المدينة المقدسة. وهي تختلف عن مكة في عدم وجود الهالة الدينية، وكونها ميناءً دوليّاً شديدَ الازدحام، وتختلف عنها من ناحية أخرى، في أن غير المسلمين يزورونها بانتظام ويستقرون فيها منذ عام ١٨١١م على

(٤٣) محمود، **رحلات الحج**، ١٧٦/٢.
(٤٤) مقابلة، جدة، ٢٠، فبراير، ٢٠١٢م.
(٤٥) مغربي، **أعلام الحجاز**، ٢٣٦/١.

الأقل، وإن كان ذلك بأعداد ضئيلة. وقد فضَّل التجارُ إنشاءَ مكاتبهم الرئيسة هناك بدلاً من مكة؛ سواء بسبب الميناء، أو بسبب الاعتبارات الدينية والأخلاقية كما ذكرته آنفاً.[٤٦]

وفي حين أن بعضَ العلماء ربما شعروا بعدم الارتياح لوجود غير المسلمين، فبالنسبة للقوميين الذين التقى بهم فان دير ميولن في جدة، كان هناك مدعاة أكثر مباشرةً للقلق الذي أشار إليه. فمع محاربتهم للهيمنة الأوروبية في بلدانهم، كانوا يتوقعون أن يكونوا أخيراً في بلد إسلامي خالص عند وصولهم إلى الحجاز؛ لذلك انزعجوا من وجود أوروبيين، خاصة أنّ أولئك العلماء كانوا يرون أنَّ الأوروبيين مهتمون للغاية بخططهم.[٤٧] وفي الواقع، ربما تكون هذه الاعتبارات الدينية والأخلاقية والسياسية هي التي أوجدت أساسَ الدلالات المهينة التي أُعطيت لجدة على أنها دهليز مكة، كما نُوقش في بداية المقال.

لكن كما رأينا، كان هذا التنوع أيضاً هو الذي مكّن المثقفين المسلمين، مثل محمد نصيف، من بناء شبكة علاقات دولية تجمع معظم العلماء المسلمين، وغير المسلمين كذلك، في سعيٍ مشترك لجمع وتبادل وطباعة المخطوطات الإسلامية. وقد مكَّن هذا أناساً آخرين من بناء أعمال تجارية مشتركة في عدد من المجالات المختلفة، ولكن لم يحظَ منها باهتمام واسع النطاق حتى الآن إلّا الاحتكارُ السيئ السمعة لنقل الحجاج في أواخر القرن التاسع عشر، والذي تعاون فيه المسؤولون القنصليون ووُكَلاء الشحن الغربيون مع رجال الأعمال المحليين لتحقيق أكبر مكاسب من تلك الشعيرة الدينية.[٤٨]

وبهذا المعنى، كانت جدة إحدى نقاط الالتقاء العديدة في عالم التجارة البحرية الدولية في القرن التاسع عشر، وهي في الوقت نفسه شديدة القرب من أقدس مدينة في الإسلام. وكان هناك بالطبع العديدُ من مراكز التعليم الإسلامي في الشرق الأوسط وأماكن أخرى، من القاهرة إلى تمبكتو، ومن بغداد إلى ميناء عليكرة وبندرآتشيه، والتي

---

(٤٦) مقابلة، جدة، ٤، مارس، ٢٠١٠م.

(47) van der Meulen, *The Wells of Ibn Sa'ud*, 21.

(٤٨) نوقشت طرق الاحتكار المختلفة في نقل الحجاج في عدة دراسات عن الحج. ومن أوائل هذه الدراسات على سبيل المثال:
William Ochsenwald, *Religion, Society, and the State in Arabia: The Hijaz under Ottoman Control*, 1840–1908, (Columbus: Ohio State University Press, 1984).

وتشير الدراسة الآتية بشكل استثنائي إلى الشبكات اليونانية المبكرة:
Pétriat, *Le Négoce des Lieux Saints, 56-60.*

شكلت نقاطَ اتصال مهمة في نقل التعلم والتواصل، كما أظهر الراحل بيل روف في حالة سنغافورة. لقد منح الجمعُ بين التجارة والحج جدة دوراً مهمّاً في هذه الشبكات، حتى لو لم تكن هي نفسها مركزاً للتعلم يمكن مقارنته بمكة أو المدينة أو القاهرة، فيما يتعلق بهذا الأمر.[٤٩] وكما اقترح روف، نحتاج إلى استكمال دراسة المراكز العلمية المهمة والعلماء؛ الأمر الذي يُعدُّ محوريّاً لفهمنا لنشر الأفكار والاتجاهات الفكرية، مع دراسة الروّاد الثقافيين. وقد كان لهؤلاء الأشخاص الذين هم في الغالب على قدر كبير من العلم ـ والذين غالبيتهم العظمى من الرجال ـ دورٌ لا غنى عنه في تمكين انتشار الأفكار من خلال ربط الناس، وتنظيم المخطوطات، وتمويل نشرها، وكذلك المساعدة في توزيعها. هذا، ويُظهر مثال محمد نصيف، وشبكته الفكرية الواسعة النطاق، ومشروعاته للنشر، أن جدة، دهليز مكة، لم تكن «قاعة استقبال» فحسب؛ بل كانت أيضاً مكاناً ضم المساعيَ التي انتشرَت في العالم الإسلامي الأوسع. ومن هذا المُنطلق، كان «للدهليز» دورٌ شديدُ الأهمية في العمارة الشاملة للبيت الإسلامي؛ دار الإسلام.

(49) William Roff, *The Origins of Malay Nationalism*, *1900-1940*, (New Haven: Yale University Press, 1967).

نبذةٌ عن المؤلِّفَيْن

أولريك فريتاغ مؤرِّخة عن الشرق الأوسط الحديث، ومديرة مركز لابينيز لدراسات الشرق الحديث بالاشتراك مع كرسيّ جامعة برلين الحرة (منذ عام ٢٠٠٢م). درست التاريخ ودراسات الشرق الأوسط في بون ودمشق، وفرايبورغ حيث حصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٠م. بعد أن درّست في الجامعة المفتوحة في هاغن، أصبحت محاضِرة في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، بجامعة لندن. في عام ١٩٩٣م نشرت فريتاغ كتابًا عن التاريخ السوري الحديث (Geschichtsschreibung in Syrien 1920-1990, Hamburg 1991)، وعن مهاجري المحيط الهندي وتكوين الدولة في حضرموت (ليدن، ٢٠٠٣م).

ينصبّ اهتمامها البحثي الرئيس في موضوع تاريخ شبه الجزيرة العربية من منظور محلي، مع التركيز على نحو خاص على التاريخ الحضري والثقافي. أحدثُ كتاب صدر لها بعنوان: «تاريخ جدة.. بوابة مكة في القرنين التاسع عشر والعشرين» (كمبريدج، نيويورك، ٢٠٢٠م).

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

تأسّس المركز سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م لمواصلة الرسالة النبيلة للملك فيصل بن عبدالعزيز -رحمه الله- في نشر العلم والمعرفة بين المملكة وبقية دول العالم. ويعدُّ المركز منصةَ بحثٍ تجمع بين الباحثين والمؤسسات لحفظ العمل العلمي ونشره وإنتاجه، وإثراء الحياة الثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية، وبناء جسرٍ للتواصل شرقاً وغرباً. ويرأس مجلس إدارة المركز صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل بن عبدالعزيز، وأمينه العام هو الدكتور سعود بن صالح السرحان.

ويقدم المركز تحليلات متعمقة حول قضايا الدراسات الاجتماعية الاقتصادية، والدراسات الثقافية، والدراسات الأفريقية والآسيوية. ويتعاون المركز مع مؤسسات البحث العلمي المرموقة في مختلف دول العالم، ويضمّ نخبةً من الباحثين المتميّزين، وله علاقة واسعة مع عددٍ من الباحثين المتخصّصين في مختلف المجالات البحثية. ويحتضن المركز مكتبة الملك فيصل، ومجموعة مخطوطات نادرة، ومتحفاً إسلامياً، وقاعة الملك فيصل التذكارية، وبرنامج الباحثين الزائرين. ويهدف المركز إلى توسيع نطاق المؤلَّفات والبحوث الحالية لتقديمها إلى صدارة المناقشات والاهتمامات العلمية، متّبعاً مساهمة المجتمعات الإسلامية في العلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون والآداب قديماً وحديثاً.

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies
ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ (١١ ٩٦٦+) تحويلة: ٨٦٩٢ فاكس: ٤٥٧٧٦١١ (١١ ٩٦٦+)
بريد إلكتروني: research@kfcris.com